مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

namacenter

أوراق نماء

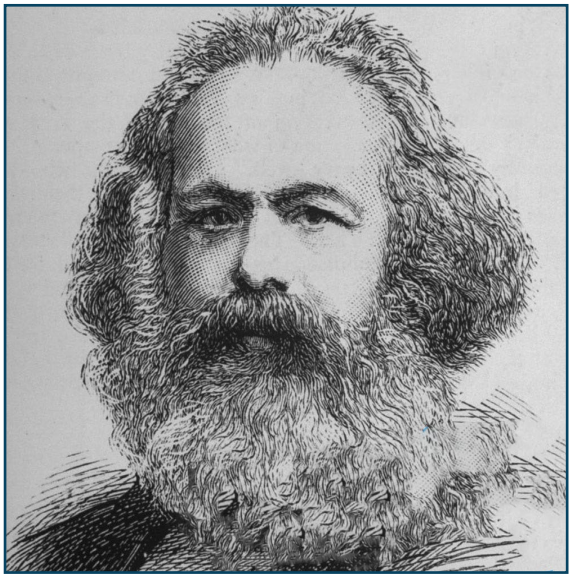

ما قل ودل في نقد الاستشراق الماركسي

حسنيوي عبد الرحمن

نبذة عن الكاتب:

حسنيوي عبد الرحمن

باحث ومدوّن من المغرب، حاصل على الإجازة في التاريخ والحضارة من جامعة المولى إسماعيل بمكناس، تنصبُّ اهتماماته البحثية على التاريخ السياسي الراهن في المغرب.

ما قل ودل في نقد الاستشراق الماركسي

شهد القرن الثامن عشر والتاسع عشر اهتمامًا كبيرًا بمناطق الشرق من طرف الباحثين الغربيين، وشكلت البعثات الأوروبية (الفرنسية والإنجليزية) تمهيدًا للاستعمار الكلاسيكي لمناطق الشرق عامة وخاصة البلاد العربية، وذلك عن طريق الامتيازات التي حصلت عليها البلدان الأوروبية من الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وأيضًا عن طريق الإرساليات التبشيرية والتعليمية، وكان هدف هذه البعثات الأجنبية هو تغذية كل التناقضات الثانوية الكامنة في المجتمع، وتحويلها إلى تناقضات رئيسية، لتصبح الأرضية صالحة لتقبل المستعمر وإبقائه لأطول مدة ممكنة وتكريس هيمنة الغرب على الشرق. في ظل هذه التحولات نحت الأوروبيون مفهومًا جديدًا وهو «الاستشراق Orientalism» الذي يعبر عن الدراسات المتعلقة بدراسة الشرق، لكن هذا المفهوم يحمل بين طياته عدة استعمالات أيديولوجية غير بريئة. إذن ما الاستشراق؟ وهل يمكن اعتبار كتابات ماركس حول الشرق معرفة استشراقية لخدمة الآلة الإمبريالية الغربية؟

في هذه الورقة سنحاول تفكيك مفهوم «الاستشراق» خاصة في الفكر الماركسي، وذلك بالاعتماد على العديد من الكتابات العربية في هذا المجال، خصوصًا كتاب إدوارد سعيد المعنون بـ«الاستشراق»، وكتاب «حفريات الاستشراق» لسالم يفوت، وكتاب صادق جلال العظم الموسوم بـ«ما بعد ذهنية التحريم»، وكتاب «هل القلب للشرق والعقل للغرب - ماركس في استشراق إدوارد سعيد-» لمهدي عامل. وسأقسم الموضوع لثلاثة محاور:

١. مفهوم الاستشراق
٢. نقد الاستشراق الماركسي
٣. نقد قراءة إدوارد سعيد للاستشراق الماركسي

✸ مفهوم الاستشراق:

يقول محمد عابد الجابري: «النصوص صنفان: صنف أيديولوجي الطابع يضمنه كاتبه هواجسه الأيديولوجية (مسبقات، أحكام جاهزة، تطلعات، رغبات...)، وصنف علمي الميول يحاول فيه صاحبه أن يتجرد من تلك الهواجس وأن يتقيد فقط بما يبدو له أن الواقع المعطى الذي يبنيه العقل وحده»،[١] يمكن اعتبار المعرفة الاستشراقية من الصنف الأول وهو صنف الأيديولوجي، لأن هذه المعرفة بالأساس جاءت لخدمة الآلة الاستعمارية الغربية التي تريد إخضاع الشرق. ومفهوم الاستشراق «Orientalism» مصطلح مشتق من كلمة (الشرق)، وعليه يكون الاستشراق هو علم دراسة الشرق، ويعنى بالاهتمام بآداب الشرق وعلومه وقضاياه والغوص في لغاته وثقافاته، ويعرف قاموس أكسفورد المستشرق: بـ«أنه من تبحر في لغات الشرق وآدابه».[٢] يعرف إدوارد سعيد الاستشراق: بـ«أنه أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى «الشرق» وبين ما يسمى «الغرب»

(١) محمد عابد الجابري، «مواقف: إضاءات وشهادات»، الكتاب الثامن والثلاثون، الطبعة الأولى، (دار النشر المغربية، الدار البيضاء - المغرب ٢٠٠٥)، ص٤١.

(٢) قاموس أكسفورد، الرابط الإلكتروني: en.oxforddictionaries.com/definition/orientalism.

(...) إن الاستشراق أسلوب «للخطاب»، أي للتفكير والكلام، تدعمه مؤسسات ومفردات وبحوث علمية، وصور، ومذاهب فكرية، بل وبيروقراطيات استعمارية وأساليب استعمارية».[1]

إن الاستشراق يرتبط بالمركزية الأوروبية (Eurocentrism) وبالسلطة الاستعمارية، فالعلم في خدمة السلطة، فالاستشراق يمكن أن يُناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها ووصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه، بالمختصر الاستشراق أسلوب غربي للسيطرة على الشرق وإعادة هيكلته، وامتلاك السيادة عليه،[2] وذلك بالاعتماد على الذريعة الأخلاقية والعقائدية التي تحمل شعار «إنقاذ الشرق من براثين التخلف والظلام الذي يعيش فيه».

إن الاستشراق خطاب، لكنه خطاب لا يعكس حقائق أو وقائع، بل يصور تمثلات أو ألوانًا من التمثيل، حيث تتخفى القوة والمؤسسة والمصلحة، فبنية الاستشراق حسب قول إدوارد سعيد ليست سوى «بنية من الأكاذيب أو الأساطير» التي ستذهب أدراج الرياح إذا ما انقشعت الحقيقة المتعلقة بها، باعتبارها تخفي قوة أو سلطة أو «إرادة قوة» بالمعنى النتشوي من بين مراميها طمس موضوع الواقع، وإعادة إنتاجه إنتاجًا تشوي فيه السلطة وتتخفى فيه المؤسسة.[3]

✸ الاستشراق في الفكر الماركسي

الكثير يقولون إن الاستشراق هو فكر برجوازي أو فكر الطبقة المسيطرة في أوروبا، لكن أحكامًا كهاته تتجاهل أن الأفكار الاستشراقية يمكن أن يحملها «بروليتاري» كذلك، وهذا ما أكدته الأحداث، فحتى «المناضلون» الشيوعون في

(١) إدوارد سعيد، «الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق»، ترجمة: د. محمد عناني، الطبعة الأولى، (رؤية للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة ٢٠٠٦)، ص ٤٤.

(٢) سالم يفوت، «حفريات الاستشراق: في نقد العقل الاستشراقي"، الطبعة الأولى، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب ١٩٨٩)، ص ١٥.

(٣) المرجع نفسه، ص١٠.

أوروبا يعتقدون بأن سبيل خروج «الشرق» من «جهالته الجهلاء» ومن «تعصبه» و«تخلفه» هو الاندماج في تاريخ الغرب وتقبل الاستعمار لأنه ضروري للانتقال من نمط الإنتاج الإقطاعي إلى نمط الإنتاج الرأسمالي.[١] فهذه الأمم الشرقية والأمم الصغيرة والمستضعفة عاجزة عن توفير الإطار التاريخي الكافي للتطور الرأسمالي بنفسها، لذا لا بد من أن يفرض عليها ذلك الإطار من خارج «الاستعمار»، وشكلت كتابات ماركس وإنغلز حول مجتمعات الشرق إحراجًا أيديولوجيًّا -حسب تعبير سالم يفوت- بوصفها تقدم تبريرًا للاستعمار الأوروبي لدول العالم الثالث.[٢]

ويرى إدوارد سعيد أن تحليلات ماركس الاقتصادية ملائمة تمامًا لجهود الاستشراق المعتادة، حتى لو كانت القضية تثير بوضوح مشاعر ماركس الإنسانية وتعاطفه مع معاناة البشر. ولكن الرؤية الاستشراقية الرومانسية هي التي تفوز آخر الأمر. فنحن نرى كيف تكمن الآراء الاقتصادية والاجتماعية النظرية عند ماركس في هذه الصورة الكلاسيكية «القياسية» في قوله: «إن على إنجلترا أن تفي بمهمة ذات شقين، الشق الأول يدمر والثاني يعيد التوليد والإحياء، فالأول يعني إبادة المجتمع الآسيوي، والثاني يعني إرساء الأسس المادية لمجتمع غربي في آسيا»[٣] ماركس هنا يمزج بين الحسرة والمرارة التي يشعر بها عند مشاهدة انهيار العالم القديم، وبين الفرحة والسعادة التي نتجت عن رؤيته لإعادة وإحياء آسيا الخامدة.

ويعتبر سالم يفوت «أن رؤية ماركس للمجتمعات الشرقية مشبعة بصورة صنعها المستشرقون، أو على الأصح صورة تستعيد الأدبيات الاستشراقية التي أنشأها الغرب لنفسه وللآخر ابتداء من عصر الأنوار، أسقط من خلالها مواقفه ومشاغله على

(١) المرجع نفسه، ص١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٠.

(٣) إدوارد سعيد، المرجع نفسه، ص٢٥٤.

الشرق وباقي المجموعات الأخر متخذًا نفسه سندًا ومرجعًا، وهو ما أطلق عليه أرنولد تونبي «التمركز على الذات»، إنه تمركز عرقي يختزل كل الفوارق والاختلافات في هوية كاذبة تتخذ شكل تعميمات كونية وأفكار إجمالية يتم إضفاء صورة الإطلاق والنهائية عليها، مثل: الاستبداد الشرقي، غياب الطبقات، غياب دينامية داخلية، غياب التاريخ».[1] فقد رد أنغلز ثورة الأمير عبد القادر الجزائري على المستعمر الفرنسي، إلى كونها صراعًا يائسًا للحالة «البربرية للمجتمع»، مُرحِّبًا بالغزو الفرنسي للجزائر، يعتبر أن رسالة الاستعمار هي رسالة تمدينية، تريد نشر المدنية الأوروبية في العوالم غير الأوروبية، ويعتمد إنجلز في طرحه هذا على فرضيتين أساسيتين هما:[2]

- ركود التشكيلات الاجتماعية للعالم الشرقي، وأن الرأسمالية تستطيع بالتالي أن تؤدي دورًا تاريخيًّا في تحطيم أنماط الإنتاج ما قبل الرأسمالية التي تسود هذه التشكيلات.
- يعتبر أن الأمم الصغيرة أو ثورات الأقليات، لا تسهم في تطور الرأسمالية كنظام علاقات اقتصادية عالمية.

ويرى أحد القادة الشيوعيين والمفكرين الكبار في إسبانيا المعاصرة وهو CLAUDIO SONCHEZ ALBORNOZ (شغل منصب رئيس حكومة الجمهوريين في المنفى إبان الحرب الأهلية الإسبانية)، أن سبب تأخر إسبانيا عن باقي البلدان الأوروبية، هو دخول العرب والمسلمين إليها، الذين أتوا بحضارة ومفاهيم «متحجرة» تعوق التقدم.[3]

(١) سالم يفوت، المرجع نفسه، ص ١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٢.

إذن يتسم الخطاب الماركسي حول الشرق بالسمة الاستعمارية، أساسها تمركزه حول الذات الأوروبية واتخاذه لها نموذج المدنية، فلا تعارض في فكر ماركس بين التركيز على ذات الأوروبية وبين التبشير بشمولية التاريخ الأوروبي وكونيته، وفي هذا الصدد يذهب إدوارد سعيد إلى القول: «إن ماركس بأفكاره المسبقة وأحلامه المبشرة بالانبعاث عبر سيطرة الغرب على الشرق، وتحطيمه لأسسه الاقتصادية البالية، إنما يعوض عن جهله بالواقع الثقافي والإنساني للعالم «غير الأوروبي» وعن افتقاره إلى الاحتكاك المباشر بهذا العالم».[1]

✸ نقد قراءة إدوارد سعيد للاستشراق الماركسي

شكل نقد إدوارد سعيد للماركسية ردة فعل عنيفة من طرف المتحزبين للنظرية الماركسية -حسب تعبير إدوارد سعيد- وعلى رأسهم المهدي عامل وصادق جلال العظم، فقد رد صادق جلال العظم على إدوارد سعيد في مقالة الموسومة بـ: «الاستشراق والاستشراق المعكوس»، فرأى أن تحليلات إدوارد سعيد لموقف كارل ماركس المتعلقة بالحكم البريطاني على الهند «لا علاقة لها بالاستشراق من قريب أو بعيد، ولا علاقة لها بالتأكيد، بأي استبداد بعقل ماركس وروحه يمكن أن تكون قد حققته أوهام الاستشراق وتمثيلاته الزائفة، إنه لخطر كبير جدًّا ولإجحاف ما بعده إجحاف»،[2] واتهم صادق جلال العظم إدوارد سعيد بأنه يؤيد الهيمنة الأمريكية، وذلك عندما قدّم إدوارد سعيد «نصيحة إلى صانعي السياسة الأمريكية وخبرائهم واختصاصيهم حول أفضل الأساليب لتمتين الأسس التي يمكن أن تستند إليها التوظيفات الأمريكية في الشرق الأوسط، وأفضل الطرق لتحسين شروط علاقة التبعية المذكورة».[3] وهذا الأمر فتح فيما بعد جدلًا كبيرًا بين إدوارد سعيد وصادق جلال العظم وصل لحد الشتم والسب.

(١) إدوارد سعيد، المرجع نفسه، ص٢٥٥.

(٢) صادق جلال العظم، «ما بعد ذهنية التحريم»، الطبعة الثانية، (دار الندى للثقافة والنشر، دمشق-سورية ٢٠٠٤)، ص ٣٤.

(٣) نور الدين جويني، "الاستشراق وصراع القراءات: إدوارد سعيد والماركسيون العرب"، (مجلة آفاق علمية، مجلد: ١٠، عدد ١ سنة ٢٠١٨)، ص ٥٠.

ويرى مهدي عامل أن المنطق الذي يتحدث به إدوارد سعيد هو منطلق خارج حركة الصراع والطبقية التي ميزت التحليل التاريخي للفكر الماركسي، وهو ما يجعله ينظر للتاريخ من موقع الثقافة المطلقة لا الفكر النقيض، «إذ يرى في الثقافة المسيطرة أو السائدة الطاغية هي الثقافة كلها، ولا يترك لنقيضها إمكان الوجود، فهو فكر أقل ما يقال فيه إنه مثالي، يرى التاريخ بعين الفكر المسيطر، حتى ولو حاول أن يكون ضده».[١] يمكن القول بأن مهدي عامل يجد في كتاب «الاستشراق» نوعًا من الضبابية وعدم الوضوح أو التناقض، فتارة يصنف إدوارد سعيد فكر كارل ماركس استثناء، ومرة أخرى يدرجه ضمن شكل معقد من التشابكات عندما يقول: «وأحيانًا ما نصادف بعض الاستثناءات، فإن لم تكن استثناءات فهي تعقيدات طريفة، فيما يتعلق بهذه المشاركة القائمة على التفاوت بين الشرق والغرب».[٢]

في ختام هذا المحور نختم بما قاله هادي العلوي في مقال له تحت عنوان «الاستشراق عاريًا» يقول: «إن كارل ماركس كان يتكلم بلسان البروليتاريا العالمية، نازعًا من قاموسه اللغوي مفرداته الغربية لحساب منطق عالمي شامل (...) فهو بتمثله لمنطق البروليتاريا العالمية لم يعد قادرًا على التكلم بلسان أوربي، ويصعب علينا في الواقع أن نعثر على مكانة مصممة للغرب كمفهوم مركز ذاتي في كتابات ماركس».[٣] ويمكن القول إن إدوارد سعيد تسرع في حكمه وكان قاسيًا على المفكر «الأممي» كارل ماركس.

(١) مهدي عامل، «هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في استشراق إدوارد سعيد»، الطبعة الأولى، دار الفارابي، بيروت-لبنان ١٩٨٥، ص ٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٨.

(٣) نور الدين جويني، المرجع نفسه، ص ٤٦.

خاتمة

خلاصة القول أن كتاب إدوارد سعيد حول «الاستشراق» يعتبر من أعظم الأعمال الفكرية في العالم إلى حدود اللحظة؛ لأنه بحق استطاع أن يفكك ويعري المعرفة الاستشراقية الغربية، وذلك بالاعتماد على مناهج وأفكار تنتمي إلى الغرب نفسه، وخصوصًا أفكار فترة ما بعد الحداثة، فإدوارد سعيد يشكل خليطًا من فوكو (من خلال مفهوم الخطاب) وغرامشي (من خلال مفهوم المثقف العضوي وتفريقه بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي). ومن خلال ما سبق يمكن أن نمزج بين آراء كل من إدوارد سعيد وسالم يفوت من جهة، وصادق جلال العظم ومهدي عامل وهادي علوي من جهة أخرى، للخروج بفكرة مفادها «أن الاستشراق الماركسي يختلف كل الاختلاف على الاستشراق الإمبريالي الاستعماري من ناحية المنهج والموضوع».

المراجع

- محمد عابد الجابري، «مواقف: إضاءات وشهادات»، الكتاب الثامن وثلاثون، الطبعة الأولى، (دار النشر المغربية، الدار البيضاء - المغرب ٢٠٠٥)، ص٤١.
- إدوارد سعيد، «الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق»، ترجمة: د. محمد عناني، الطبعة الأولى، (رؤية للنشر والتوزيع، مصر - القاهرة ٢٠٠٦).
- سالم يفوت، «حفريات الاستشراق: في نقد العقل الاستشراقي»، الطبعة الأولى، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب ١٩٨٩).
- صادق جلال العظم، «ما بعد ذهنية التحريم»، الطبعة الثانية، (دار الندى للثقافة والنشر، دمشق-سورية ٢٠٠٤).
- نور الدين جويني، «الاستشراق وصراع القراءات: إدوارد سعيد والماركسيون العرب»، (مجلة آفاق علمية، مجلد: ١٠، عدد ١ سنة ٢٠١٨).
- مهدي عامل، «هل القلب للشرق والعقل للغرب؟ ماركس في استشراق إدوارد سعيد»، الطبعة الأولى، (دار الفارابي، بيروت-لبنان ١٩٨٥).
- قاموس أكسفورد: en.oxforddictionaries.com.